

الخطابات الاستشراقية كألية لصناعة الكراهية بين الشرق والغرب

قراءة في موقف إدوارد سعيد

Orientalist Discourses as a Mechanism for Manufacturing Hatred Between the East and the West: A Reading of Edward Said's Position

لبنة بوزاهر^{1*}، د. بديع الزمان حوري²

¹ مخبر التنمية الاجتماعية وخدمة المجتمع، جامعة الوادي، (الجزائر) lobna-bouzahar@univ-eloued.dz

² مخبر التنمية الاجتماعية وخدمة المجتمع، جامعة الوادي، (الجزائر) houri-b.zamane@univ-eloued.dz

تاريخ النشر: 2024-12-30

تاريخ القبول: 2024-12-09

تاريخ الاستلام: 2024-09-01

ملخص:

غالبا ما كانت الخطابات الاستشراقية تخفي أغراضا سياسية وثقافية وتعكس إيديولوجيات معينة، وهو ما عمل المفكر والناقد الفلسطيني إدوارد سعيد على كشفه من خلال تفكيكه للكتابات الاستشراقية الحاملة لغايات ليس هدفها التعرف على الشرق بل الاستحواذ عليه، عن طريق بث الكراهية بين الثقافات أو داخل الثقافة الواحدة، وبالتالي منح الاستعمار السياسي الشرعية في اتخاذ الشرق الذي قوامه السحر والخرافة والعنف والتخلف - كما يراه المستشرق - وجهة استعمارية، من خلال مقولات قائمة على العنصرية والامبريالية.

لقد جاءت هذه الدراسة المهمة بمنهجها التحليلي لتسلط الضوء على الاستشراق باعتباره آلية لصناعة الكراهية بين الثقافات، وذلك بعرض الموقف النقدي لإدوارد سعيد من الكتابات الاستشراقية المشبعة بخطاب الكراهية تجاه الشرق، كاشفا عن نواياها الحقيقية في الدعوة للاستعمار وزعزعة استقرار الشرق، في الوقت الذي كان يمكن أن تكون هذه الدراسات الاستشراقية جسرا رابطا بين الحضارتين الشرقية والغربية مفسحة بذلك المجال لكل مظاهر الانفتاح والتعاون والصدقة.

الكلمات المفتاحية: إدوارد سعيد؛ الاستشراق؛ الشرق؛ الغرب؛ الكراهية؛ النقد الثقافي.

Abstract: Orientalist discourses have often concealed political and cultural purposes and reflected certain ideologies. This is what Palestinian thinker and critic Edward Said worked to reveal by deconstructing Orientalist writings that carry goals whose purpose is not to understand the East but to possess it, by spreading hatred between cultures or within a single culture, and thus granting political colonialism the legitimacy to take the East, which is based on magic, myth, violence, and backwardness as seen by the Orientalist, as a destination, through propositions based on racism and imperialism.

This important study, with its analytical approach, came to shed light on Orientalism as a mechanism for manufacturing hatred, by presenting Edward Said's critical stance on Orientalist writings saturated with a discourse of hatred towards the East, revealing its true intentions in calling for colonialism and destabilizing the East.

Keywords: Edward Said; Orientalism; East; West; hatred; cultural criticism.

* المؤلف المراسل.

1-مقدمة

لقد جاء الخطاب الاستشراقي في الأساس لأغراض علمية أكاديمية، غايتها استقراء تاريخ الشرق والتعرف على نمط الحياة لديهم، إضافة إلى الإحاطة بمعتقداتهم وقيمهم، لكن سرعان ما اختلط الجانب الأكاديمي للاستشراق بغايات أخرى ثقافية وسياسية واقتصادية كان موجهها الأول الإيديولوجية الغربية ومركزيتها. تبعا لذلك لم تعد الغاية من الخطاب الاستشراقي كما كانت دائما هي تصوير الواقع الشرقي ونقله للمشاهد الغربي بهدف الاطلاع على حقيقة الشرق والتشرب من ثقافته، خاصة ما سعى إليه الاستشراق الجديد متجها نحو تحقيق المطالب السياسية على حساب الغايات العلمية والدينية التي كانت ضمن أهداف المستشرقين الكلاسيكيين، وهو ما جعل الاستشراق يتخذ منحى مغايرا طغى على كل الغايات الأخرى وجعل الكتابات الاستشراقية الجديدة جليا -إن لم نقل جميعها- جاءت حاملة لرسائل سياسية مؤدلجة، هذا التوجه الجديد للاستشراق جعل منه آلية مباشرة لصناعة الكراهية والمساهمة في توسيع الهوة بين الشرق والغرب، وبالتالي كان منطلقا للصدام الحضاري ودافعا للاستعمار بل ومدافعا عن الغايات الاستعمارية ومانحا إياها المشروعية، في الوقت الذي كان يمكن لهذه الكتابات أن تكون أرضية خصبة للتكامل الحضاري بين الثقافتين.

حيث يوصف الشرق في أدبيات المستشرقين بالعنف والرجعية التي سببها -حسبهم- اعتماده على السحر والخرافة، هذه المفاهيم الاختزالية للشرق المشبعة بالكراهية والعنصرية والامبريالية جاءت خادمة للاستعمار الغربي وللأنظمة السياسية الغربية، حاملة معها تصورات مسبقة عن طبيعة الأفراد في الشرق وعن مرجعية إيمانهم وقيمهم، رغم عدم الاحتكاك الفعلي بهم أو الاطلاع المباشر على طريقة عيشهم.

هذا التوجه العنصري والمنحاز الذي يحمله الخطاب الاستشراقي أرق المفكر الأمريكي فلسطيني الأصل إدوارد سعيد (1935-2003)، E. Said، الذي ازداد اهتمامه بقضايا الشرق بعد الهزيمة العربية في حرب 1967، فأخذ على عاتقه مهمة الكشف عن نوايا الاستشراق وعن الوجه الآخر للمستشرق، بعيدا عن كونه مجرد مفكر يستهدف واقع الشرق وقضاياها بالدراسة والتحليل إلى عنصري إيديولوجي صانع للكراهية بين الثقافات المختلفة وفي الثقافة الواحدة، بهدف زعزعة الاستقرار الشرقي وجعل الشرق بؤرة للفوضى والانحلال، الذي من شأنه أن يفتح الباب على مصراعيه للاستعمار الغربي ثقافيا وعسكريا.

2-الإشكالية:

تثير هذه الدراسة إشكالية حاولنا الإجابة عليها من خلال ما قدم في مباحثها، وتتعلق أساسا بالاستشراق كآلية لصناعة الكراهية والصدام الحضاري، وموقف إدوارد سعيد من هذه الآلية وتحليل أهدافها ونواياها. فكيف ساهمت الدراسات الاستشراقية في بث الكراهية بين الشرق والغرب؟ وما هو موقف إدوارد سعيد منها؟ وبناء على ذلك حاولنا الإجابة على جملة من التساؤلات:

- ما مفهوم الاستشراق؟ وما هي دلالاته عند المفكر الناقد إدوارد سعيد؟
- ما معنى صناعة الكراهية؟ وما هي وسائل الاستشراق في تحقيق ذلك؟
- ما هي أبعاد صناعة الكراهية من خلال الخطاب الاستشراقي؟
- ما موقف إدوارد سعيد من هذه الخطابات؟

3- منهج الدراسة:

اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج التحليلي الذي عمدنا من خلاله إلى تحليل موقف إدوارد سعيد من الخطاب الاستشراقي المشبع بقيم العنصرية والكراهية، إضافة إلى المنهج النقدي الذي تناولنا فيه هذه القيم بالتعقيب والمناقشة.

4- أهداف الدراسة:

حظيت مسألة الاستشراق كعلم يستهدف الشرق بالدراسة والإحاطة بعلمه وآدابه ولغاته وفنونه وثقافته معتقداته، بمكانة هامة جدا في حقول الأدب والفكر والفلسفة بصورة عامة، نظرا للدور الذي لعبته الدراسات الاستشراقية في بلورة العلاقات بين الشرق والغرب، وبالتالي تهدف هذه الدراسة إلى:

- الوقوف على دلالات الاستشراق عند إدوارد سعيد، وتفكيكه للكتابات الاستشراقية المتشعبة بقيم الكراهية والعنصرية والوقية، وتحليل موقفه منها.
- تحليل الغايات السياسية التي سعى المستشرقون إلى تحقيقها من خلال الدراسات الاستشراقية المؤدلجة والتي تفتقر إلى الموضوعية.
- الكشف عن خطاب الكراهية الذي تحمله الكتابات الاستشراقية، ومحاولة تحليل أسسه وغاياته، إضافة إلى البحث في الوسائل التي كرس من خلالها الغرب هذه الغايات وعمل على ترسيخها في أذهان المتلقي الغربي.

5- مقارنة مفاهيمية للاستشراق:

- الاستشراق لغة:

يشق لفظ "الاستشراق" من الفعل «استشرق أي اتجه إلى الشرق، وانتسب إليه» (النبهان، 2012، صفحة 11)

ولعل المفهوم اللغوي للاستشراق لا يحمل دلالاته الفعلية التي هي دلالة اصطلاحية تعني «طلب علوم الشرق واتجاه للتخصص في معرفتها» (النبهان، 2012، صفحة 11)

- الاستشراق اصطلاحا:

سنكتفي في هذا الجزء من الدراسة بالوقوف على المفهوم الاصطلاحي للاستشراق لدى إدوارد سعيد، من خلال التركيز على الدلالات المختلفة التي أعطاها للاستشراق والمستشرق. وعليه فإنه وبالحدوث عن الاستشراق في فكر الناقد الفذ إدوارد سعيد نجده يحمل ثلاث دلالات أساسية، وردت جميعها في كتابه الأشهر على الإطلاق "الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء" الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1978، إضافة إلى بعض من المقاربات الأخرى للمفهوم:

أما الدلالة الأولى: فهي دلالة جامعية أكاديمية ويعتبر سعيد أنها الدلالة الأكثر تقبلا، «فكل من يقوم بتدريس الشرق، أو الكتابة عنه أو بحثه-ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصا بعلم الانسان "أنثروبولوجي"، أو بعلم الاجتماع، أو مؤرخا، أو فقيه لغة "فيلولوجيا"- في جوانبه المحددة والعامية على حد سواء، هو مستشرق، ما يقوم هو أو هي بفعله هو استشرق» (سعيد، 2010، صفحة 38)، وهنا يعطي الاستشراق مدلولاً أكاديمياً جامعياً، حيث نظر للاستشراق بوصفه مبحثاً أكاديمياً، والمستشرق ما هو إلا باحث أكاديمي وجامعي قد يكون أنثروبولوجيا مهتما بعلم الإنسان الشرقي، أو عالم اجتماع ينقصى أحوال المجتمع الشرقي وقضاياها الاجتماعية، أو

مؤرخا غايته البحث في تاريخ الشرق والمحطات التاريخية الكبرى للثقافة الشرقية، أو فيلولوجيا يبحث في لغات الشرق.

وأما الدلالة الثانية: فهي دلالة فكرية إيديولوجية باعتبار الاستشراق «أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي "أنطولوجي" ومعرفي "إيستيمولوجي" بين الشرق و(في معظم الأحيان) الغرب» (سعيد، 2010، صفحة 38)، وذلك لأن الذات الغربية تنظر إلى الذات الشرقية بوصفها آخرا، فهي تنظر لوجودها انطلاقا من المغايرة، فإذا كانت الأنا الغربية متحضرة فهذا انطلاقا من تخلف الذات الشرقية، وإذا كان المجتمع الغربي مسالما فهذا انطلاقا من همجية المجتمع الشرقي، وقس على ذلك كل مظاهر التقدم الحضاري والسمو الأخلاقي للغرب انطلاقا من مظاهر الرجعية والانحلال الأخلاقي للشرق.

وأما الدلالة الثالثة: فهي دلالة استعمارية تظهر في قوله: «الاستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق_ التعامل معه بإصدار تقارير حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه، وحكمه: وبإيجاز، الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق، واستبناؤه، وامتلاك السيادة عليه» (سعيد، 2010، صفحة 39)، ولعل هذه الدلالة هي الأقرب للواقعية وهي المعبرة على حقيقة الاستشراق الذي ينقده سعيد ويكشف عن نواياه وغاياته، باعتباره أسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق وإعادة بنائه، بمعنى إعادة هيكلة الشرق كما يريد المنظور الاستشراقي، أي ابتداع الشرق من خلال كتابات المستشرقين.

نخلص من خلال الوقوف على دلالات المفهوم عند إدوارد سعيد، أن الاستشراق ما هو إلا ظاهرة ثقافية وطريقة لتحقيق التلاؤم مع الشرق، تتجسد من خلال الإنشاء الكتابي والدراسات التي تشرف عليها المؤسسات الجامعية والأكاديمية، التي تستهدف الشرق بالدراسة سواء من الناحية التاريخية أو الاجتماعية أو اللغوية وغيرها من الجوانب العامة التي تركب الذات الشرقية، وهذه الدراسات هي في الواقع غير منقطعة الصلة عن الغايات السياسية، التي تسعى إلى معرفة الشرق واستكشافه باعتباره ذلك الكيان المختلف، المجهول، الغريب والغامض، بهدف إخضاعه للسيطرة وفرض نفوذها وهيمنتها الثقافية والعسكرية عليه، وهو ما يُظهر جليا العلاقة الوطيدة بين المعرفة والسلطة.

6- أبعاد صناعة الكراهية في الخطاب الاستشراقي:

6-1- صناعة الكراهية: في دلالة المفهوم

تعتبر صناعة الكراهية سلاحًا مهمًا في الحروب النفسية، وهي أداة تستخدمها الأنظمة الديكتاتورية لتفكيك تماسك الشعوب والمجتمعات، من خلال استهداف السلوك الاجتماعي بالتأثير على الأفكار والمشاعر، وذلك باللجوء إلى مجموعة متنوعة من الأساليب كنشر الأكاذيب، وتزوير الحقائق، والتلاعب بالعقول، والافتراء على الآخرين، والتحريض. ما من شأنه أن يوفر بيئة خصبة للكراهية والمعاداة، وبذلك يؤدي إلى العنف والتطرف. أما عن الجهات الفاعلة في ذلك فهي الأنظمة الديكتاتورية، والنخب الفكرية والسياسية والثقافية والدينية الكاسدة، كما تحظى صناعة الكراهية برعاية وغطاء من الأنظمة المستبدية، ومن دول كبرى تسعى إلى تحقيق أهدافها الجيوستراتيجية من خلال بث الكراهية والتفرقة بين الشعوب. (عبد السلام، 2021، صفحة 64، 63)

أما عن وسائل المستشرقين في تحقيق أهدافهم السياسية والاستعمارية وفرض هيمنتهم على الشرق فهي كثيرة حيث «لم يترك المستشرقون مجالاً من مجالات الأنشطة المعرفية والتوجيهية العليا إلا تخصصوا فيها، منها: التعليم الجامعي، وإنشاء المؤسسات العالمية لتوجيه التعليم والتنقيف، وعقد المؤتمرات والندوات ولقاءات التحاور، وإصدار المجلات، ونشر المقالات، وجمع المخطوطات العربية، والتحقيق والنشر وتأليف الكتب ودس السموم

الفكرية فيها بصورة خفية ومتدرجة، وإنشاء الموسوعات العلمية الإسلامية، والعناية العظمى لإفساد المرأة المسلمة وتزيين الكتابة باللغة العامية» (نجا، 1993، صفحة 160).

6-2- صناعة الكراهية بين الثقافات:

يعتبر إدوارد سعيد أن الدراسة الغربية للشرق أو ما يعرف بالاستشراق أخذت شكلين أساسيين أولها التوافق بين الشرق والاستشراق، وثانيها الاطراد وغياب التوافق مع حقيقة الشرق (سعيد، 2010، صفحة 41)، ونحن هنا بصدد الحديث عن شكلها الثاني الذي كان موضوع كتابه الشهير "الاستشراق"، هذا النوع الذي ينبي أساسا على وعي غربي تفوقى لا يجد في الشرق أي تحدي ولا يرى فيه أي تهديد أو ندية، بل ينظر إلى مركزية الذات الغربية وتفوقها انطلاقا من دونية الذات الشرقية ورجعيتها، هذه الأفكار التي سعى الاستشراق في شكله الإطرادي إلى بعثها في الوعي الغربي، «ومن يستطيع أن ينكر أنها كانت أفكارا مشبعة بمذاهب التفوق الأوروبي، وبشتى أنواع العرقية العنصرية، وبالإمبريالية، وما إليها، وبأفكار مذهبية جامدة عن الشرقي، بوصفه تجريدا مثاليا ولا متغيرا» (سعيد، 2010، صفحة 43).

وما يبدو ظاهرا وجليا من مثل هكذا كتابات موجهة للقارئ الغربي هو تكديره بتفوقه على الفرد الشرقي وفي ذلك نشر للكراهية وترسيخ لقيم العنصرية والتمييز العرقي ورفض الاختلاف، وبذلك مثل هذه الخطابات تفتح المجال للذات الغربية في أن تحظى بالحق الكامل -المشروع حسبها- في الحكم على الذات الشرقية من منطلقات التخلف الشرقي ورجعيته وقيامه على السحر والخرافة -كما أريد له أن يكون في خطابات المستشرقين وإيديولوجياتهم-، الأمر الذي يجعل من الضروري للغرب أن يضع نفسه في موقع السيطرة على الشرق الذي تتفقت منه زمام أموره، وكأن الكتابات الاستشراقية المغلوطة والحاملة للزيف عن حقيقة الشرق تمنح المشروعية للذات الغربية لفرض هيمنتها على الشرق.

6-2-1- الاستشراق وصناعة الكراهية ضد الإسلام:

وإن كانت الكتابات الاستشراقية قد عملت على دراسة الشرق بأكمله، فإنها ركزت اهتمامها الأكبر بدراسة الشرق المسلم باعتبار الإسلام الفاعل الأساسي في بلورة الفكر الشرقي الوجداني، وفي تكوين العقلية الشرقية الرجعية، وعليه فإن العداء بين الشرق المسلم وبين الغرب يضرب بجذوره في التاريخ الذي يعود إلى الحروب الصليبية، هذا العداء الذي لم ينتهي بل ظهر بشكل جديد من خلال الكتابات الاستشراقية التي عادت لتوظف هذه الكراهية من سباتها وتعمل على تصعيد حدة العداء بين الثقافتين الشرقية والغربية، من خلال كتابات عنصرية تحت غطاء أكاديمي جامعي، غايتها أن تظهر من جديد وبعد مرور حقب تاريخية، أن الغرب لطالما كان على حق في موقفه من الشرق عامة ومن الإسلام على وجه التحديد. وهو ما يعبر عنه سعيد في قوله: «وبطريقة أو بأخرى تواصل هذا المزيج من الفزع والعداء حتى يومنا هذا في الانتباه البحثي وغير البحثي المنصب على إسلام يرى منتما إلى جزء من العالم (هو الشرق) يوضع موقع النقيض ضد أوروبا والغرب على الصعيد التخيلي والجغرافي والتاريخي» (سعيد، 1996، صفحة 119).

يعتبر إدوارد سعيد في ثلاثيته الشهيرة (الاستشراق، الثقافة والإمبريالية، تغطية الإسلام) أن الإسلام لطالما كان كبش الفداء الذي تتسبب إليه كل الممارسات المستهجنة سياسيا وثقافيا وفكريا واقتصاديا وهو ما عبر عنه سعيد في كتابه تغطية الإسلام الذي تناول من خلاله وبإسهاب تحليلات الغرب ورؤى الاستشراق المشوهة للإسلام باعتباره مرجعية دينية عاجزة عن الاندماج في العولمة ومواكبة الحداثة، بما من شأنه أن يكون في ذهن الفرد الغربي تصورات مظلمة حوله، ويسهم بذلك في بث الكراهية والعداء نحو الشرق بصفة عامة والثقافة

الإسلامية بشكل خاص، «ومع ذلك فالآراء تتفق على اعتبار "الإسلام" كبش الفداء الذي ننسب إليه كل ما نتصادف أن نكرهه في الأنساق السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة في عالم اليوم. فاليمين يرى أن الإسلام يمثل الهمجية، واليسار يرى أنه يمثل حكم القرون الوسطى، والوسط يرى أنه يمثل الغربة المموجة» (سعيد، 2005، صفحة 37). ويؤكد عبد الكريم عثمان (1992) على الجهود التي تبذلها الحضارة الغربية في سبيل إظهار الإسلام بما لا يمت لحقيقته بصلة من خلال تجنيد المؤسسات التعليمية ومراكز البحث المختصة في دراسة تاريخ الشرق للعمل على طمس الهوية الثابتة للإسلام وتشويه مبادئه لإظهاره ديناً لا يتماشى مع قيم الحضارة والديمقراطية. (عثمان، 1992، صفحة 99)

وبالحديث عن الإسلام باعتباره أهم مقوم لبعض أجزاء الشرق وأكبر تهديد للغرب، فإن الروى الغربية عملت على تحديد ملامحه بما يتناسب مع الأغراض السياسية للغرب، ويعتبر سعيد في مقدمة كتابه "تغطية الإسلام" أن اهتمام الغرب بالإسلام ومحاولة فهمه وتحليله ووضعها في قوالب المستشرقين الجاهزة جاء بعد أن أصبحت إيران أحد العناصر الفاعلة في المشهد الدولي، الأمر الذي لفت انتباه المجتمع الغربي لمحاولة فهمه والإحاطة بمبادئه، فسارعت وسائل الإعلام باعتبارها أحد أهم الآليات المستخدمة في تحقيق الأغراض السياسية إلى تحديد ملامح الإسلام وتغطيته تغطية شاملة لكنها مظلمة مزيفة من شأنها أن توفر على الفرد الغربي عناء البحث في تفاصيله، ومن شأنها أيضاً أن تقنع المجتمع الغربي بضرورة الخوف من المسلم الإرهابي وذلك لما أذاعته القنوات التلفزيونية من أخبار مفعجة ارتبطت في الغالب بالإسلام. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا تولي وسائل الإعلام الغربية كل هذا الاهتمام بالإسلام وبمحاولة فهمه دوناً عن بقية الأديان الأخرى؟ لماذا لا نجدها بالموازاة من ذلك تركز على الديانة اليهودية أو المسيحية وعلى أثرها في صناعة الأحداث العالمية؟ لعل الإجابة الوحيدة والأقرب إلى الواقعية هنا هي أن الحضارة الغربية ترى في الإسلام تهديداً واضحاً ومباشراً لكيانها واستمراريتها، وبالتالي فإنها تعمل على تجنيد كل وسائلها وآلياتها لإظهاره بمظهر مشوه يثير الخوف والنفور في نفوس الأفراد.

وهنا يشير سعيد إلى أن الفهم الغربي للإسلام ارتبط في الغالب بما تقدمه المادة الإخبارية أو من خلال ما تعرضه الكتابات الاستشراقية وهي في الغالب عبارة عن دراسات أقل ما يقال عنها أنها تقتصر إلى الموضوعية والدقة في التمهيص والكشف ليس لجهل أو لنقص في وسائل البحث -وقد يحدث ذلك أحياناً وهنا لا تكون صناعة الكراهية أمراً مقصوداً وليس هذا موضوعنا هنا- بل إنه في الغالب ما يصنع المادة الإخبارية وما يوجهها هو الغايات العنصرية والتحيز العرقي الشديد والكراهية الثقافية، غير أن المشاهد الغربي الذي يجهل هذه الغايات الخفية التي توجه الوسائل الناقلة للواقع الإسلامي سيظن أنه من خلال ما قدم له أنه أحاط بالإسلام إحاطة تامة (سعيد، 2005، صفحة 29)، لكنها في الحقيقة ممزوجة بالكراهية والعنصرية التي يغفل عنها المثقف.

إن التوصيفات الأكاديمية للإسلام تحصره في زاوية واحدة تركز على كونه ديناً أو أسلوب حياة لا يتناسب والثقافة الغربية -وإن كانت في الواقع تعتبره تهديداً غير مصرحة بذلك- والسبب في ذلك حسب وصفها أنه يبرر الهمجية ويدعمها، ويسلم بالقضاء والقدر وهو ما يبرر التواكل لدى المسلمين، إضافة لكونه ديناً لا يقبل الاختلاف أو التعدد الديني أو الثقافي ويدعو للكفاح والجهاد، غير أن المطلع على الواقع الشرقي وبالتحديد الإسلامي يدرك الهوة الشاسعة بين هذه الروى الأكاديمية الذاتية والعرقية، وبين حقيقة الإسلام كدين لا يدعم الفكر الشيوعي ولا يقبل فضاضة اللفظ أو السلوك فكيف به ليبرر الهمجية أو يدعمها، إضافة إلى أنه يمقت التواكل وما

التسليم بالقضاء والقدر إلا لبث السكينة في نفوس الأفراد المسلمين، وهو في الواقع دين التسامح والانفتاح على الآخر. وبالتالي فإن النخب الأكاديمية الغربية من مستشرقين وكتاب وأنثروبولوجيين ومؤرخين ... وغيرهم، يتخذون من التمثلات غير العلمية عن الإسلام مادة لتدريسها ونشرها على أنها حقيقة الإسلام. غير أنها لا تعدو أن تكون صورة من الصور المشوهة له في المتخيل الأوروبي.

جدير بالذكر أن الخطاب الاستشراقي وإن كان يحمل دلالات سلبية لدى المفكرين العرب والمسلمين، إلا أنه لم يكن واحدا لدى جميع المستشرقين، فكما عمل البعض منهم على تصوير الشرق بعدسة مشوهة للواقع تجسدت في مفاهيم اختزالية وصور نمطية، في المقابل عمل البعض الآخر على دراسة الشرق بموضوعية وإنصاف شديدين وهو ما أكسب هذا الجزء من الكتابات الاستشراقية المصادقية في حديثها على الشرق والنماذج على ذلك كثيرة، ولعل الاختلاف بين الفريقين يعود في الأساس إلى جملة من العوامل والظروف التي لعبت دورا في تصنيف المستشرقين، سواء من حيث المدارس التي ينتمون إليها كالمدرسة الألمانية أو الفرنسية أو الإنجليزية التي عرفت روادا في الدراسات الاستشراقية، أو من حيث الظهور والزمن والظروف السائدة في تلك المرحلة، أو من حيث الغايات التي يحملها كل فريق والتي يسعى إلى تحقيقها من خلال اطلاعه على حقيقة الشرق.

ما يهمننا في هذه الدراسة هو تسليط الضوء على الصنف الذي لعب دورا في بلورة العداء بين الشرق والغرب وتغذيته بمفاهيم عنصرية وامبريالية، وهنا سيكون لنا وقفة موجزة لأحد أهم النماذج الاستشراقية التي حملت في كتاباتها خطابا مشبعا بالكراهية اتجاه الشرق والعنصرية والوقية كاشفا عن نوايا استعمارية واضحة، ولعل أبرز المستشرقين الذين ساهموا بشكل مباشر في صناعة الكراهية والعداء اتجاه الشرق نذكر في دراستنا:

• إرنست رينان أحد صناع الكراهية اتجاه الشرق والإسلام:

يعتبر المستشرق الفرنسي والناقد إرنست رينان (1823-1892) E. Renan زعيما للتفرقة العرقية بين الأجناس الشرقية والغربية، حيث عني بدراسة الأديان وبخاصة الحضارة الإسلامية حتى أنه أقام في الشرق الأوسط ليطلع عن كثب على الثقافة العربية وبالخصوص على الحضارة الإسلامية، ولعل السبب في ذلك الاهتمام الكبير الذي أولاه لهذا المشروع والذي يظهر في كتاباته التي يعرض من خلالها مقالات وتحليلات لمفكرين مسلمين كان في مقدمتهم ابن رشد، هو أنه كان يهدف من خلال دراسته تلك إلى بيان أوجه النقص والعجز في الفكر العربي والإسلامي بالتحديد، وأن يسلط الضوء على مظاهر الرجعية والتخلف التي كان يسعى في جل كتاباته أن يجعلها صفة ملازمة للشعوب العربية والمسلمة، ضف إلى ذلك وصفه للذات الشرقية بالعنف والتعصب الذي يظهرها بمظهر المتخلف، العاجز عن مسايرة التطور ومواكبة الحداثة الراض الانخراط في العولمة.

لقد اعتبر إدوارد سعيد أن إرنست رينان هو من المستشرقين الذين لا تطابق كتاباتهم الاستشراقية الحقيقة الشرقية، بل هو مستشرق يعرض موقفه من الشرق ودراساته عنه في قالب يخدم العنصرية العرقية، مستخدما في ذلك الفيلولوجيا "فقه اللغة" منطلقا في دراساته تلك، «فقد صيغت دراسات رينان اللغوية للسامية عام 1848، مثلا، بأسلوب استنقي، من أجل توثيق نفسه، من الدراسات المعاصرة في النحو المقارن، والتشريح المقارن، وقد أضفى ذلك على استشرافه امتيازاً وجعل الاستشراق معرضاً للطعن» (سعيد، 2010، صفحة 74، 73).

يصف رينان الذات الشرقية بكونها ذاتا غارقة في العاطفة والروحانيات والغيبيات تتميز بالثبات والجمود والبساطة في حين أن الذات الغربية ديناميكية عقلانية وواقعية تنظر للمستقبل وتخطط له وليس لديها وقت للعاطفة والوجدان، حيث كان بنظريته هذه صانعا للكراهية بين الشرق والغرب، وباعثا لجذور مشروع التخوف من

الإسلام أو ما يعرف بالإسلاموفوبيا الأمر الذي يجعل من الإسلام بنية إرهابية باعثة للخوف والرعب في نفوس الأفراد. ولعل ما يضيف على دراساته نوعاً من التمييز والعنصرية هو أنه ورغم أنه حظي بفرصة التقرب من الشرق والاطلاع على حقيقته من خلال إقامته في لبنان لسنتين، إلا أنه ورغم ذلك اختار أن يقدم كتاباته بلغة فوقية تركز قيم التعالي والمركزية للذات الغربية.

لم يكن رينان صانعاً مخضماً للكراهية بين الشرق والغرب فحسب، بل عمل من خلال دراساته المتخصصة في الأديان واهتمامه بالشرق وعلومه وفلسفته على زراعة الكراهية وبثها في نفوس المسلمين أنفسهم تجاه دينهم، وفي بثها في نفوس العرب غير المسلمين اتجاه العرب المسلمين، وذلك بدعوته المستميتة إلى بيان أوجه الظلام والرجعية في الدين الإسلامي وتعاليمه، ما يجعل المسلم ضحية لدينه الذي فرض عليه قصراً - حسبه-، وبالتالي نجده يحمل الإنسانية مهمة عظيمة وعاجلة وهي ضرورة تخليص المسلمين من قيود دينهم وفي ذلك يقول: «ما قلته هو أن الإسلام يشكل صعوبات كبيرة أمام العلم، ولسوء الحظ، فقد نجح خلال الخمسة أو الستة قرون الماضية في قمعه تقريباً في البلدان التي يسيطر عليها (...) فالمسلمون هم أول ضحايا الإسلام (...) تحرير المسلم من دينه هو أفضل خدمة يمكن تقديمها له» (Renan, 1883).

إن خطاباً كهذا الذي يتبناه المستشرق رينان من شأنه أن يشكل تهديداً حقيقياً لاستقرار حال المسلم الذي يمكن أن يعزو تخلفه لا لأسباب موضوعية، بل لمجرد كونه مسلم، ما يبعث في نفسيته شعوره بكونه ضحية لمنظومة عقائدية مبنية على العنف والتطرف وتتبد كل تقدم يمكن أن ينشده الفرد، وهي الدعوة التي يتبناها رينان في كون المسلم يجب أن يتحرر من هذا الدين إذا كان يريد أن يستقيم حاله ويخرج من ظلمات الجهل والتخلف، نظراً لرينان هذه لا يمكن تصنيفها ضمن دراسات موضوعية موضوعها الأديان، بل لا يمكن أن تعدو كونها خطابات استشراقية جاهزة تحمل رسائل مبطنة مشبعة بدعوات عنصرية وعرقية ترفض الاختلاف والمغايرة.

7- صناعة الكراهية بين أفراد الثقافة الواحدة:

وإن كان إدوارد سعيد من خلال قراءته المعمقة وتحليله للدراسات الاستشراقية قد ركز اهتمامه على إشكالية العلاقة بين الشرق والغرب في جانبها التصادمي، مسلطاً الضوء على دور المستشرق في توسيع الهوة بين الثقافتين من خلال ما يلعبه الاستشراق من دور كبير في تأزم العلاقات بين الحضارتين الشرقية والغربية، إلا أنه لا مناص من الإشارة هنا ولو في عجالة إلى البعد الثاني لصناعة الكراهية من خلال الخطاب الاستشراقي، هذا البعد الذي لا تكون فيه الكتابات الاستشراقية موجهة للقارئ الغربي فحسب، بل هي في الأساس معدة للمتلقى الشرقي، وجعله يرى نفسه بعين الغرب، ويقراً عن الشرق المختزل في قوالب معدة وجاهزة لإثارة الفتنة والضغينة، وبالتالي العمل على التأثير في الآراء والسلوك الفردي ما يؤدي إلى ضرب البنى الاجتماعية في الثقافة الواحدة وهشاشة العلاقات بين أفرادها، وشيوع الانشقاقات بينهم وهو ما يفتح المجال لبلوغ الغايات الاستعمارية الغربية. وعليه فليس من التعسف أو المبالغة في شيء أن نقول بأنه من غايات الاستشراق ضرب استقرار الشعوب الشرقية عربية كانت أو غيرها، مسلمة أو من غير المسلمين، والعمل على شيوع الفوضى الاجتماعية، والتفرقة بين أبناء الثقافة الواحدة بضرب بعضهم ببعض ولعل هذا هو البعد الثاني لصناعة الكراهية «ذلك البعد الذي يسعى فيه بعض المفكرين ومنهم المستشرقون إلى صناعة الكراهية داخل الثقافة الواحدة، ولتكن الثقافة الإسلامية هنا مثلاً. فحينما يعمد بعض المستشرقين إلى هذا المجال فإن الأمر سيكون أشد وطأة، لاسيما إذا جعلوا في الاختلافات بين المسلمين في الفروع مجالا رحبا للتفرقة بينهم» (النملة، 2009، صفحة 18).

يعمل المستشرق - سأضيف إليه هنا تسمية المؤدلج لكونه تشبع بإيديولوجيا سياسية معينة وبروح استعمارية متعطشة لإثارة الفوضى واللاإستقرار-، من خلال دراسته للشرق إلى تصيد الأخطاء والتركيز على مواطن الضعف والهشاشة في العلاقات الاجتماعية بين أفراد الثقافة الواحدة، باحثاً عن أوجه الاختلاف في القيم أو المعتقدات أو الطوائف أو العادات الاجتماعية أو الأعراف أو اللغة، جاعلاً منها موضوعاً خصباً للدراسة والتحصيل، بهدف الخوض فيما ليس من شأنه أن يخوض فيه ليس لغرض علمي أو تاريخي، بل ليجعل منه سبباً للتفرقة بين أبناء الأمة الواحدة، وهو أمر ليس من الصعوبة أن يبحث فيه، وإذا ما كان له ذلك لم يكن بالبعيد أن تحل الفوضى بين المشتركين في الثقافة والمختلفين في الفروع.

8- قراءة في موقف إدوارد سعيد من الاستشراق الصانع للكراهية:

لقد اهتم إدوارد سعيد في كتابه الأهم "الاستشراق" على تفكيك الخطاب الاستشراقي كاشفاً عن جانبه الامبريالي، وذلك من خلال الفصل بين الاستشراق السياسي الحامل لغايات استعمارية بحتة، عن بقية أنواع الاستشراق الأخرى، وهنا يعتبر علي بن إبراهيم النملة أنك لا تكاد تجد عملاً علمياً للمفكرين العرب يشخص فيه الاستشراق السياسي من حيث منطلقاته وغاياته بمعزل عن الاستشراق العام، ولعل المحاولة الجدية الوحيدة في ذلك نجده في إسهامات إدوارد سعيد في فصل الاستشراق السياسي عن بقية أنواع الاستشراق، ودراسته والعمل على تفكيك مقولاته والتصدي لغاياته، وهو ما عرضه من خلال كتابه آف الذكر، ولم يكتف بذلك بل تواصلت إسهاماته في كتاب "الثقافة والامبريالية" ثم في كتاب "تغطية الإسلام"، «فيما عدا ذلك لا تكاد تجد عملاً علمياً مستقلاً عن الاستشراق السياسي، مع وجود محاولات ضمنية شخّصت البعد السياسي للاستشراق» (النملة، 2009، صفحة 54).

وعليه فإن الغايات الواضحة التي سعى الاستشراق السياسي إلى تحقيقها، والتي عمل إدوارد سعيد على تفكيكها وفضحها قد بلورت نظرة سعيد للاستشراق بصورة عامة، وهو ما يظهر في الدلالات التي وضعها للمفهوم والتي سبق الحديث عنها، وهو إن كان يرى فيه فرعاً أكاديمياً، فإنه يوجه النظر لحقيقته ولنواياه الخفية باعتباره «أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه» (سعيد، 2010، صفحة 39)، هذا الأمر جعل بعض المفكرين يعتبرون إدوارد سعيد قد كان مجحفاً في حق العديد من المستشرقين الذي عملوا على نشر الوثائق بين الحضارات ومحاولة التقريب بينها، من خلال تسليط الضوء على مواطن الالتقاء والتقارب التي من شأنها أن تكون أرضية خصبة للتعاون والحوار، حيث اعتبر البعض أن سعيد ومن خلال كتابه الاستشراق قد وقع في التعميم المجحف في حق تلك الفئة، وهنا نقول، لعل ذلك يعود إلى أن الفئة الثانية من المستشرقين التي حملت مهمة بعث جذور العداة والعنصرية والتفرقة بين الثقافات وإن كان عددها قليلاً مقارنة بالفئة الأولى التي كانت منصفة لحقيقة الشرق، هو أن فئة الكارهين قد كان لها بالغ الدور في التأثير على الرأي العام وفي توجيه الأمور وصنع القرار، نظراً لكونها تتلقى الدعم من جهات كبرى تجد في خطابات هذه الفئة ما يحقق غاياتها.

يرفض سعيد التوصيفات الغربية للذات الشرقية، من منطلق أنها لا تعبر عن جوهر الشرق وواقعه، لأن المستشرق في الغالب يدرس الشرق من منظور غربي دون أي معرفة فعلية بالشرق أو احتكاك بالمجتمعات الشرقية، بل ما يتم عرضه في الخطاب الاستشراقي خاصة الذي غايتة بث الكراهية وإضعاف تماسك الشعوب وضرب العلاقة بين الثقافات والدول، هو أنه خطاب يعتمد في الأساس على الجانب التخيلي للمستشرق في اختلاق الشرق واستبناؤه بناءً يخدم الغرب وتوجهاته وإيديولوجيته. وهو ما عمل الاستشراق الفرنسي والبريطاني خاصة على ترسيخه باعتبارهما المنبع الضخم لهذا النوع من الخطابات المغرضة، «فلقد كانت التقاليد الفرنسية

والبريطانية تشترك في فحوى التعميمات الخاصة بالشرق والشرقيين، وبالحفاظ على التمييز بين الشرق والغرب، وتفضيل السيطرة الغربية على الشرق» (سعيد، 2006، صفحة 351)، وهو ما يفقد الدراسة الاستشراقية المصادقية والموضوعية في عرض الحقائق حول الشرق، ولم يكن ذلك كافيا بل إن هذه الدراسات أخذت كفايتها من التشبع بقيم العنصرية اتجاه كل ما يخالف الغرب وهو كل ما يطلق عليه تسمية "الشرق"، دون أدنى مراعاة لإنسانية الآخر المختلف وثقافته وقناعاته.

ويجد إدوارد سعيد لمثل هذه الكتابات مبررات تدفع بمفكري الحضارة الغربية أن ينمطوا الشرق ويقللوا من شأن الإسلام، فلم يكن الأمر يوما اعتباطيا، لم تكن هذه السرديات الجاهزة والقوالب التي تحمل الشرق وتصوره تارة بكونه الضعيف الروحاني، وتارة أخرى بكونه العنيف المتخلف، عبارة عن دراسات موضوعية هدفها الانفتاح عن الآخر والوعي به، بل كانت خطابات مجهزة خصيصا لتظهر الشرق وتظهر الإسلام بمظهر مخيف يمنح الحضارة الغربية مشروعية السيطرة عليه، كونه لطالما شكل تهديدا وجوديا للذات الغربية، حيث «لم يصبح الإسلام رمزا للرب، والدمار، والشيطاني، وأفواج من البرابرة الممقوتين، بصورة اعتباطية. فبالنسبة لأوروبا كن الإسلام رجة مأساوية دائمة. وحتى نهاية القرن السابع عشر كان "الخطر العثماني" متربصا بأوروبا ممثلا للحضارة المسيحية كلها تهديدا دائما» (سعيد، 2010، صفحة 89).

9- نتائج الدراسة:

وتبعاً لذلك نخرج من خلال تحليلنا لموقف إدوارد سعيد الناقد للخطاب الاستشراقي الصانع للكراهية بجملة من النتائج التي يمكن أن نلخصها فيما يلي:

- إن توجه المستشرق لمعالجة قضايا الشرق من منظور سياسي جعل الاستشراق كعلم يخرج عن سياقه الذي وضع له في الأساس وأفقد الكتابات الاستشراقية المصادقية نظرا لغياب الموضوعية في الطرح الاستشراقي.
- كان يمكن أن تكون الكتابات الاستشراقية طريقا لتضييق الهوة بين الشرق والغرب وزيادة فرص التعاون والتكامل الحضاري، وتمتين أواصر الصداقة بين الثقافات إذا ما جعل همه دراسة الواقع الشرقي بحيادية وموضوعية تعكس حقيقة الشرق وثقافته وعلومه، هو الأمر الذي كان من شأنه أن يوسع مجال الاحتكاك الحضاري والثقافي بين الشعوب المختلفة.
- لقد عملت إسهامات إدوارد سعيد في نقد الخطاب الاستشراقي على بيان أوجه التحريف والزيف فيه، كما كشفت عن غاياته الحقيقية وعن نواياه الاستعمارية، وهو الأمر الذي يكشف العلاقة بين المعرفة والسلطة، وهذا الموضوع تناوله سعيد بإسهاب في كتابه الاستشراق.
- إن الكتابات الاستشراقية المضللة لعبت دورا كبيرا في ترسيخ قيم العنصرية والإمبريالية وبالتالي نشر الكراهية اتجاه الثقافة الشرقية، الأمر الذي ساهم في شيوع جرائم الكراهية التي يذهب ضحيتها الكثير من العرب والشرقيين بوجه عام والمسلمين بشكل خاص، نتيجة خطاب استشراقي جاهز ومفاهيم اختزالية مشبعة بالعداء تجد في الفنون ووسائل الإعلام وحاليا في منصات التواصل الاجتماعي طريقها لاستهداف شريحة معتبرة من المجتمع الغربي.

10- خاتمة:

نخلص في النهاية إلى القول بأن ما قدمته الكتابات الاستشراقية التي افترقت إلى الموضوعية من زيف وتحريف للواقع الشرقي وتظليل للحقائق التاريخية في إطار ممنهج ومعد مسبقاً، ما هو إلا انعكاس للإيديولوجية الغربية المتعالية، وأن بذور الكراهية التي حملتها هذه الدراسات وعملت على تغذيتها بمذاهب وثقافات معينة لم ترتبط بواقع الشرق بشي من الحقيقة، بل كانت لغايات سياسية بحتة.

إن أي مطلع على هذا النوع من الكتابات العنصرية سواء كان عربياً أو مسلماً أو باحثاً موضوعياً أو مستشرقاً منصفاً سيؤرقه الحال الذي يصور به الشرق في أغلب هذه الدراسات، وسيستأصل عن السبب وراء هذه الصور النمطية والقوالب الجاهزة التي غالباً ما يوصف بها الشرق، وهي إن دلت على شيء فإنها لا تدل على أن الفرد الشرقي أو المسلم هو في الحقيقة مثلما أرادته هذه الدراسات أن يبدو، بل ستدل على قيم العنصرية والكراهية التي يحملها الغرب اتجاه الذات الشرقية والتي عمل على تغذيتها من خلال خطاب المستشرقين الذي لا يحاكي الواقع الشرقي في شيء، مثل هذه التساؤلات وهذه الأفكار المؤرقة كانت الشغل الشاغل لمفكرنا إدوارد سعيد، الأمر الذي دفعه للكشف عن غاياتها ومراميها.

وعليه فإن القارئ لما يكتب في الأدب الغربي والأكاديمي عن الشرق والشرقيين إضافة إلى ما تعرضه الفنون من صور وسيناريوهات عن الفرد الشرقي وجغرافيا الشرق، يلمس جلياً المفارقة الكبيرة بين ما يتم عرضه ونشره، وبين الواقع الشرقي في حقيقته إذا ما اطلع عليها من مصادره الموضوعية.

أما عن التوصيات التي نقدمها ونقترحها من خلال هذه الدراسة فتأتي كما يلي:

- ضرورة إعادة برمجة الوعي الغربي بأهمية الحوار الثقافي الذي من شأنه أن يكشف مواطن التظليل والزيف في الخطاب الاستشراقي الذي يجد في وسائل الإعلام طريقه للانتشار وتحقيق غاياته. وذلك من خلال تكثيف الدراسات الاستشراقية الموازية التي تتميز بالموضوعية والمصادقية في عرض الواقع الشرقي.
- تسخير منصات التواصل الاجتماعي لإيصال صوت الحقيقة وتغيير النظرة الغربية للذات الشرقية من خلال تصدير الصورة الحقيقية للمجتمع الشرقي المثقف والمنفتح على الآخر والمناهض لكل مظاهر الكراهية والإرهاب والعنصرية.

الاحالات والمراجع:

- إدوارد سعيد. (1996). تعقيبات على الاستشراق (الإصدار 1). (صبحي حديدي، المترجمون) بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- إدوارد سعيد. (2005). تغطية الإسلام. (محمد عناني، المحرر) القاهرة: دار رؤية.
- إدوارد سعيد. (2006). الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق (الإصدار 01). (محمد عناني، المترجمون) القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.
- إدوارد سعيد. (2010). الإستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء. (كمال أبو ديب، المترجمون) بيروت، لبنان: مؤسسة الأبحاث العربية.
- عبد الكريم عثمان. (1992). معالم الثقافة الإسلامية (الإصدار 16). بيروت: مؤسسة الرسالة.
- علي بن إبراهيم النملة. (2009). صناعة الكراهية بين الثقافات وأثر الاستشراق في افتعالها (الإصدار 2). دمشق: دار الفكر.
- فاطمة هدى نجا. (1993). نور الإسلام وأباطيل الاستشراق (الإصدار 1). طرابلس، لبنان: دار الإيمان.

محمد فاروق النبهان. (2012). الاستشراق: تعريفه، مدارسه، آثاره. الرباط، المغرب: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

سعد عبد السلام. (جانفي، 2021). جذور صناعة خطاب الكراهية في ثقافة المجتمع المعاصر. مجلة التميز الفكري للعلوم الاجتماعية والانسانية، الصفحات 58-74.

Renan, E. (1883, 05 19). Journal des débats politiques et littéraires. Consulté le 04 18, 2024, sur <https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k462243x>